

## الهدنة

مضى اليوم الثانى بعد مجيء وفد بنى أسد إلى امرئ القيس، وكان عامر بن معاوية الجون يقضى معهم أكثر الوقت فى مجاملة وترحيب، معتذراً عن امرئ القيس بأنه لم يسرع إلى مقابلتهم لاشتغاله فى إخراج ما حمل إليه من سلاح أبيه وأمواله ومتاعه، وكان يحاول جهده أن يفهمهم أن غيابه ليس لإعراض عنهم، أو استخفاف بشأنهم، خوفاً من أن تثور كبريائهم، فيعودوا من حيث أتوا، وتتفقت من يديه بذلك تلك الفرصة الذهبية؛ فقد كان أكبر همه أن يحدث بين امرئ القيس وبينهم اتفاقاً يؤدي إلى حفظ ملك حجر فى بيته وتولية ولده فى مكانه.

ولكن امرأ القيس كان عنيداً، وقد ذهب فى غيظه من بنى أسد وحقده عليهم إلى أبعد غاية، فكان يعيد عليه الرجاء والتوسل أن يخرج إليهم، وينظر فيما أتوا من أجله؛ وهو يدافع ويمانع، ويأبى أن يلقاهم على غير الحرب وطلب الثأر.

ولكن عامراً كان يرى الحكمة فى أن يتجنب الحرب ويرضى من الثأر بقتل أحد عظماء بنى أسد، لكى يبلغ ما كان يقصده من إعادة الملك إلى امرئ القيس. ولهذا تحمل ما تحمل من قول الشاب الحانق، وصبر ما صبر على ما وجهه إليه من قوارص الكلم.

وكان يقضى اليوم مع الضيوف: يجاملهم ويحييهم ويثير فيهم أمل السلام والمودعة؛ فإذا ما عاد إلى امرئ القيس جعل يراجعه ويناقشه، ويتوسل إليه، ويظهر له وجوه مصلحته في مسالمتهم.

فلما كان عصر اليوم الثالث من مجيء الوفد ذهب عامر إلى خيمة امرئ القيس فوجده عند بابها فوق الرمال وسيف أبيه بين يديه قد ركزه في الأرض، وجلس مطرقاً، يلبس عمامة سوداء دليلاً على ما عقد عليه النية من القتال.

فوقف أمامه حتى رفع بصره إليه فوجد عينيه محمرتين ورأى على وجهه تجهماً وغيظاً، فألقى عليه تحية الملك قائلاً: «أبيت اللعن أيها الملك الهمام».

قال امرؤ القيس ولا يزال متجهماً: «عم صباحاً، عمّاه».

ثم عاد إلى إطرأقه.

فصمت عامر لحظة ثم قال: «قد عزم القوم على الرحيل اليوم بعد أن أقاموا ثلاثاً».

فقال امرؤ القيس وهو مطرق: «وما يضيرنا لو ذهبوا».

فأحس عامر عند ذلك كأن سهماً قد أصاب قلبه، لأنه كان يظن بعد تكرار توسله ومراجعته أن امرأ القيس قد عدل عن عناده، وأنه يلقي القوم ويفاوضهم فيما يبلغ به ثأره ويستعيد ملكه ويحقن دماء قومه؛ ولكنه رأى من ذلك الجواب أن ظنه قد خاب، وأنه لا يجديه بعد أن يطيل الجدل والمناقشة؛ فالقوم لا بد سائرون إلى أرضهم

بعد ثلاثة أيام قضوها فى انتظاره. وسيزيع ذلك بعد العرب ويحدث فيهم بغير شك أثره. ودب اليأس إلى قلبه وتارت فى نفسه عوامل الغضب، لأنه رأى فى إصرار الشاب على رأيه وإبائه طاعته مع كل توسله - رأى فى ذلك استخفافاً به وبمشورته، وهم أن يلقى إليه قولاً شديداً، ولكنه كظم غيظه.

وأطرق حيناً يفكر ويقلب الرأى على وجوهه ويلتمس الحيلة فى أمر هذا الفتى العنيد الذى يوشك أن يفسد كل تدبيره بحمقه وصلفه، ثم رفع رأسه وقال متكلماً الهدوء: «إذا فأنت لا تريد أن تلقى القوم لترى ما عندهم؟».

فقال امرؤ القيس وكأنه أحس بما ثار فى نفس عامر من الغضب: «إذا كنت تحب أن ألقاهم فإنى أطيعك».

وسكت لحظة قصيرة ثم أستأنف قائلاً: «ولكنى لن أرضى بأن أجعل دم أبى كفيئاً لدم أحد منهم. لقد علمت العرب أنه لا كفاء لحجر فى دم».

فصمت عامر ونظر إلى ناحية من الوادى، ولم يرد أن تقع عينه على عين الشاب، فقد كان عند ذلك وشيك الدفعة قريب الغضبة، ثم قال فى شىء من الجفاء: «إذا شئت فالآن».

فقام امرؤ القيس من مكانه صامتاً ونزع سيفه من الأرض فعلقه فى حمائله ولبس قباء من الحرير وخفاً من الجلد، ومشى نحو الخيام التى كان بنو أسد يقيمون بها عند أقصى الوادى، وسار عامر مطرقاً فى آثاره حتى بلغا الخيام.

كان القوم عند ذلك جلوسًا فى ساحة فسيحة بين الخيام، قد اجتمعوا فيها فى انتظار عامر بعد أن أبلغوه فى الصباح أنهم عازمون على الرحيل، وكان عامر قد طلب إليهم أن ينتظروا ريثما يعود إليهم مع امرئ القيس، وكان فى الجمع جماعة من كندة، ومن بعض من اجتمع من شيوخ قبائل اليمن النازلين على مقربة من ذلك الوادى. يتحدثون فى هدوء، وقد تفرقوا جماعات منهم الشبان ومنهم الكهول، وكل منهم يلتف بمن يشاكلة؛ فلما ظهر امرؤ القيس وعامر يسير وراءه قاموا جميعاً ناظرين إليهما فى صمت يشبه أن يكون خشوعاً، وقد بدا عليهم العطف على الفتى والرتاء لما أصابه.

ولما صار امرؤ القيس على خطوات منهم أوماً بالتحية وقال فى صوت خافت: «عمتم صباحاً».

فردوا جميعاً على التحية فى أصوات مختلفة، وتقدم قبيلة ابن نعيم فوقف حتى صار فى وجه امرئ القيس وقال: «أبيت اللعن يا بن الأكرمين».

ثم بدأ يتكلم عن الوفد، والكل ينصتون إليه، وكان صوته الهادئ يرن فى ذلك السكون رنيناً عميقاً يبعث الرهبة، ولفظه الواضح يسترعى الأسماع ويقع فى القلوب، وبيانه الفصيح يملأ قلوب قومه إعجاباً به، وارتياحاً إلى نيابته عنهم. فذكر قصة حجر ومقتله، ثم أحسن عزاء امرئ القيس فيه، وعدد محاسنه وكرم محتده؛

ثم قال بعد أن بلغ ما أرضاه وأرضى قومه من ذلك: «ولو كان يفدى هالك بالأنفيس الباقية بعده، لما بخلت كرائمنا على مثله ببذل ذلك، ولفدينا حجرًا منه، ولكن مضى به سبيل لا ترجع أولاه على أخراه، ولا يلحق أقصاه أدناه».

ثم مد يده نحو امرئ القيس وقال: «فأحمد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال: إما أن اخترت من بنى أسد أشرفها بيتًا، وأعلاها في بناء المكرمات صوتًا، فقدناه إليك بنسعة، فيذهب مع شفرات حسامك عنقه».

فتحرك عند ذلك امرؤ القيس ضجرًا، والتفت إلى عامر التفتاة حنق لم يخف معناها على قبيصة. فوقف صامتًا، وأطرق لحظة، ثم رفع رأسه، وقد تغير مظهره فاكتسى شيئًا من الحدة، وعلاه شيء من التحدى، ورفع رأسه، وتكلم مرة أخرى؛ ولكنه كان عند ذلك أعلى صوتًا وأقل خشوعًا، فقال: «فإن أبيت هذا فداء بما يروح في بنى أسد من نعمها، فهي ألوف تجاوز الحسبة، فيكون ذلك فداء ترجع به السيوف إلى أجفانها، فلا تسلط الإحن على البرآء».

فبدا عند ذلك الكره في وجه امرئ القيس، وهم أن يتكلم، لولا أن أمسك عامر بذراعه من ورائه، وسكت قبيصة لحظة أخرى، ولما عاد إلى الكلام كان صوته أجش، ووجهه محمرًا، وعيناه تلمعان. فقال: «وان أبيت، فوادعنا حتى تضع الحوامل، فنسدل الأزر، ونعقد الخمر فوق الرايات».

ولما أتم قوله شمل الجمع سكون، كأنه هدوء الريح قبل العاصفة؛ وتحرك شبان بنى أسد وهم ينظرون إلى امرئ القيس، وتحرك شبان كندة، وانحازوا إلى جانب جميعاً، حتى وقفوا وراء أميرهم الشاب، وقد علاهم مظهر الغضب والتحدى؛ وتقدم عامر حتى وقف إلى جانب امرئ القيس، ورفع رأسه، وجعل يعبث بلحيته فى هدوء يخفى ما تحته من الثورة. فقد رأى من قول قبيصة أن بنى أسد إنما يعرضون السلام ظاهراً، والسيوف من تحت ثيابهم مستترة، وأنهم لم يأتوا كما ظن خاضعين يعرضون المُلْك على امرئ القيس فى خشوع وندم على ما فرط منهم، بل جاءوا وهم أقرب إلى التحدى والمنافرة منهم إلى المسالمة والمودعة. وكان امرؤ القيس عندما بلغ قبيصة ختام قوله قد أطرق متكئاً على سيفه، ووجهه متجه مربد، فأتجهت العيون كلها إليه، وأرهفت الأسماع لما يجيب به، فرفع يده إلى عينيه فمسح دمعة كانت تجول فيهما ثم نظر إلى القوم، وقد انتفخت أوداجه، وعقد ما بين حاجبيه، وبدأ يتكلم وهو يحاول كتمان ما يثور فى نفسه من الغضب، وكان صوته متهدجاً، ونبراته متقطعة، وأنفاسه مضطربة، قال:

«لقد علمت العرب أن لا كفاء لحجر فى دم، وأنى لن أعتاض به جملاً أو ناقة، فأكتسب بذلك سُبَّةَ الأبد، وفَتَّ العُضد. وأما المودعة والنظرة، فقد أوجبتها الأجنة فى بطون أمهاتها. ولن أكون لعطبها سبباً. وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل فى القلوب حنقاً، وفوق الأسنان علقاً».

ثم سكت لحظة ونظر حوله فى وجوه القوم، واتسعت عيناه،  
واستأنف قائلاً:

إذا جالت الخيل فى مأزق تصافح فيه المنايا النفوسا  
ثم نظر إلى قبيصة نظرة خاطفة، وقال وهو رافع رأسه: «أتقيمون  
أم تنصرفون؟».

فأسرع قبيصة فقال وعيناه تبرقان: «بل ننصرف بأسوأ الاختيار،  
بمكروه وأذية، وحرب وبليّة».

ونظر إلى قومه وتحرك يريد الذهاب، وبنو أسد يتحركون  
وراءه، حتى إذا ما صار على خطوات من امرئ القيس نظر إليه  
وقال وهو يحرك سيفه تجاهه فى الهواء:

لعلك أن تستوخم الموت إن غدت كتائبنا فى مأزق الموت تمطر  
فرفع امرؤ القيس سيفه وحركه فوق رأسه وقال وهو ينظر إليه:  
«لا والله لا أستوخمه، فرويداً ينكشف لك دجاها عن فرسان كنفة،  
وكتائب حمير».

فتقدم إليه عامر وجذبه من مؤخر قبائه وهمس فى أذنه كلمة.  
فقال امرؤ القيس متجهاً إلى قبيصة: «لقد كان غير هذا أولى بى،  
إن كنت نازلاً بربعى، ولكنك قلت فأجبت».

فمضى قبيصة فى طريقه وهو يقول: «لا عليك يا امرأ القيس.  
إن ما نتوقع من الحرب فوق قدر المعاتبة والإعتاب».

ومضى القوم إلى مناخ الإبل فأثاروها ثم ركبوا، وساروا حتى  
اختلفوا وراء جانب الوادى، وامرؤ القيس ينظر فى آثارهم وعامر  
مطرق إلى جانبه قد علاه الوجوم، وشيوخ كندة من حولهما صامتون؛  
ثم ساروا جميعاً عائدين إلى خيامهم، ووقف شبان كندة فى الفضاء  
الفسيح يضحون فى حديثهم الغاضب، كأنهم يستعجلون القتال.  
ولما بلغ امرؤ القيس منزله كانت الشمس قد اختلفت وراء  
غطاء كثيف من السحب الداكنة، وهب الهواء واشتد برده فجأة،  
حتى اضطر أن يدخل إلى خيمته، ودخل معه عامر وجماعة من  
شيوخ كندة.

وكانت الخيمة فسيحة من خيام حجر التى حملها عامر فيما  
حمل من متاعه، وقد فرشت بأنواع من بسط فارس وأذربيجان،  
ووضعت فى جوانبها مقاعد وثيرة مما كان الملك حجر ينصبه  
لاستقبال ضيوفه من قواد فارس وأمرائها، إذا حلوا فى بلاده للصيد،  
أو أقبلوا إليه فى سفارة؛ فجلس امرؤ القيس فى الصدر، وأجلس  
عامراً والشيوخ فى جواره، وأخذوا يتذاكرون ما كان، ويتدبرون  
فيما هم فاعلون للاستعداد للحرب التى لا بد منها.

وفيما هم فى ذلك أقبل عليهم عبد، فوقف عند باب الخيمة  
وهو يلهث، وحاول أن يتكلم فخانته أنفاسه، فصاح به امرؤ  
القيس: «ماذا أصابك؟ هل من خوف؟».

فهز العبد رأسه ثم قال فى لفظ متقطع : «هند، أقبلت هند بنت حجر فى ركبها، وكنت فى الإبل أرهاها فى وادى (عارض)، فبعثتنى لأحمل إليك نبأها».

وكان امرؤ القيس وهو يسمع قول العبد ينظر إليه فى لهفة، ومنذ سمع اسم هند وثب حتى أمسك بذراع الرجل، فلما انتهى من قوله، قال له فى شبه صيحة: «وقد نزلت هناك؟».

فقال العبد بعد أن استعاد أنفاسه: «بل هى تسير فى آثارى، وقد أتيت إلى هنا مسرعاً».

فنظر امرؤ القيس إلى عامر وقال مبادراً: «نسير إليها يا أبا الجون؟».

فأسرع عامر إلى مرابط الخيل، وصاح بمن كان هناك من الخدم أن يقربوها، وما هى إلا لحظات حتى كانت الخيل تعلو جانب الوادى متجهة نحو وادى (عارض) وهى تحمل امرأ القيس فى جمع من شيوخ كندة وكهولها لاستقبال الأميرة الجميلة التى فجعت فى أبيها، وأقبلت إلى أرض قومها باليمن، خائفة من المقام فى أرض بنى أسد - هند بنت حجر.

\* \* \*